فصل

ولما استقر رسول الله ﷺ في المدينة ، وأيده الله بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم بعد العداوة ، ومنعته أنصار الله من الأحمر والأسود : رمتهم العرب واليهود عن قوس واحد . وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة . والله يأمر رسوله والمؤمنين بالكف والعفو والصفح ، حتى قويت الشوكة . فحينئذ أذن لهم في القتال ، ولم يفرضه عليهم ، فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾(1) وهـي أول آية نزلت في القتال .

ثم فـرض عليهم قتال من قاتلهـم ، فقـال تعـالـى : ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ الآية(2) .

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، فقال : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ الآية(3) .

بعض خصائص رسول الله ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ يبايع أصحابه في الحرب : على ألا يفروا . وربما بايعهم على الموت . وربما بايعهم على الجهاد . وربما بايعهم على الإسلام . وبايعهم على الهجرة قبل الفتح . وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة الله ورسوله .

---

(1) آية ٣٩ من سورة الحج .

(2) من الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

(3) من الآية ٣٦ من سورة براءة .

وبايع نفراً من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً . فكان السوط يسقط من أحدهم . فينزل فيأخذه ، ولا يسأل أحداً أن يناوله إياه .

وكان يبعث البعوث يأتونه بخبر عدوه . ويُطْلع الطلائع ، ويبث الحرس والعيون ، حتى لا يخفى عليه من أمر عدوه شيء .

وكان إذا لقي عدوه دعا الله واستنصر به ، وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله ، والتضرع له .

وكان كثير المشاورة لأصحابه في الجهاد .

وكان يتخلف في ساقتهم . فيزجي الضعيف ، ويردف المنقطع .

وكان إذا أراد غزوة وَرَّى بغيرها .

وكان يرتب الجيش والمقاتلة ، ويجعل في كل جَنبة كفؤاً لها .

وكان يُبارَز بين يديه بأمره . وكان يلبس للحرب عدته . وربما ظاهر بين درعين كما فعل يوم بدر .

وكان له ألوية . وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً ثم قفل .

وكان إذا أراد أن يُغِير : ينتظر . فإذا سمع مؤذناً لم يُغِرْ ، وإلا أغار .

وكان يحب الخروج يوم الخميس بُكْرة .

وكان إذا اشتد البأس اتقوا به ، وكان أقربَهم إلى العدو .

وكان يحب الخيلاء في الحرب ، وينهى عن قتل النساء والولدان . وينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو .

أول لواء عقده رسول الله ﷺ :

وأول لواء عقده رسول الله ﷺ -على قول موسى بن عقبة- لواء حمزة ابن عبد المطلب في شهر رمضان في السنة الأولى ، بعثه في ثلاثين رجلا من المهاجرين خاصة ، يعترض عيراً لقريش ، جاءت من الشام ، فيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل ، حتى بلغوا سِيف البحر من ناحية العِيص ، فالتقوا واصطفوا للقتال فحجز بينهم مَجْدي بن عمرو الجهني . وكان موادعاً للفريقين . فلم يقتتلوا .

سرية عبيدة بن الحارث :

ثم بعث عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف في شوال من تلك السنة ، في سرية إلى بطن رابغ في ستين رجلا من المهاجرين خاصة . فلقي أبا سفيان عند رابغ . فكان بينهم الرَّمي . ولم يَسُلُّوا السيوف . وإنما كانت مناوشة . وكان سعد بن أبي وقاص أولَ من رمى بسهم في سبيل الله ، ثم انصرف الفريقان .

وقَدَّم ابن إسحاق سرية حمزة .

سرية سعد بن أبي وقاص :

ثم بعث سعدَ بن أبي وقاص في ذي القعدة من تلك السنة إلى الخرار من أرض الحجاز ، يعترضون عيراً لقريش . وعهد إليه : أن لا يجاوز الخرار ، وكانوا عشرين فخرجوا على أقدامهم يسيرون بالليل ، ويكمنون بالنهار . حتى بلغوا الخرار ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس .

ثم دخلت السنة الثانية .

غزوة الأبواء :

فغزا فيها ﷺ غزوة الأبواء . وكانت أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه . خرج في المهاجرين خاصة ، يعترض عيراً لقريش ، فلم يلق كيداً .

وفيها وادع بني ضَمْرة على ألا يغزوهم ولا يغزوه ، ولا يعينوا عليه أحداً .

غزوة بواط :

ثم غزا بواطاً في ربيع الأول . خرج يعترض عيراً لقريش ، فيها أمية بن خلف ومائة رجل من المشركين . فبلغ بواطاً -جبلاً من جبال جهينة- فرجع ولم يلق كيداً .

خروجه لطلب كرز بن جابر :

ثم خرج في طلب كُرْز بن جابر الفِهْري . وقد أغار على سرح المدينة ، فاستاقه . فخرج رسول الله ﷺ في أثره حتى بلغ سفوان من ناحية بدر . وفاته كرز .

غزوة العشيرة :

ثم خرج في جمادى الآخرة في مائة وخمسين من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام . وخرج في ثلاثين بعيراً يتعاقبونها . فبلغ ذا العشيرة من ناحية ينبع . فوجد العير قد فاتته بأيام . وهي التي خرجوا لها يوم بدر ، لما جاءت عائدة من الشام .

وفيها : وادع بني مدلج وحلفاءهم .

بعث عبد الله بن جحش :

ثم بعث عبد الله بن جحش إلى نخلة في رجب في اثني عشر رجلا من المهاجرين كل اثنين على بعير . فوصلوا إلى نخلة ، يرصدون عيراً لقريش . وكان رسول الله ﷺ قد كتب له كتاباً . وأمره : ألا ينظر فيه حتى يسير يومين . فلما فتح الكتاب إذا فيه : «إذا نظرت في كتابي هذا ، فامض حتى تنزل بنخلة بين مكة والطائف ، فترصد قريشاً ، وتعلم لنا أخبارها» .

فأخبر أصحابه بذلك ، وأخبرهم أنه لا يستكرههم ، فقالوا : سمعاً وطاعة .

فلما كان في أثناء الطريق ، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما . فتخلفا في طلبه ، ومضوا حتى نزلوا نخلة .

قتل عمرو بن الحضرمي :

فمرت بهم عير قريش تحمل زبيباً وتجارة فيها عمرو بن الحضرمي ، فقتلوه ، وأسروا عثمان ونوفلا ابني عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة .

فقال المسلمون : نحن في آخر يوم من رجب . فإن قاتلناهم : انتهكنا الشهر الحرام وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم . ثم أجمعوا على ملاقاتهم . فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسروا عثمان والحكم . وأفلت نوفل . ثم قدموا بالعير والأسيرين ، حتى عزلوا من ذلك الخمس . فكان أول خمس في الإسلام ، وأول قتل في الإسلام ، وأول أسر . فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه .

واشتد إنكار قريش لذلك . وزعموا : أنهم وجدوا مقالا . فقالوا : قد أحل محمد الشهر الحرام . واشتد على المسلمين ذلك ، حتى أنزل الله : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾(١) الآية يقول سبحانه : هذا الذي أنكرتموه -وإن كان كبيراً- فما ارتكبتموه وترتكبونه من الكفر بالله ، والصد عن سبيله وبيته ، وإخراج المسلمين منه ، أكبر عند الله .

معنى الفتنة :

و«الفتنة» هنا الشرك ، كقوله : ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾(٢) وقوله : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٣) أي لم تكن عاقبة شركهم ، وآخرة أمرهم إلا أن أنكروه ، وتبرأوا منه .

وحقيقتها : الشرك الذي يدعو إليه صاحبه ، ويعاقب من لم يفتتن به . ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾(٤) الآية ، فُسِّرت بتعذيب المؤمنين وإحراقهم بالنار ، ليرجعوا عن دينهم .

وقد تأتي «الفتنة» ويراد بها : المعصية . كقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ الآية(٥) وكفتنة الرجل في أهله وماله ، وولده

---

(١) من الآية ٢١٧ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

(٣) آية ٢٣ من سورة الأنعام .

(٤) من الآية ١٠ من سورة البروج .

(٥) من الآية ٤٩ من سورة التوبة .

وجاره ، وكالفتن التي وقعت بين أهل الإسلام .

وأما التي يضيفها الله لنفسه ، فهي بمعنى الامتحان والابتلاء والاختبار .

وقعة بدر الكبرى ، يوم الفرقان :

فلما كان في رمضان . بلغ رسولَ الله ﷺ خبر العير المقبلة من الشام مع أبي سفيان ، فيها أموال قريش . فندب رسولُ الله ﷺ للخروج إليها . فخرج مسرعاً في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا . ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان : فرس للزبير ، وفرس للمقداد بن الأسود . وكان معهم سبعون بعيراً ، يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير . واستخلف على المدينة عبدالله بن أم مكتوم .

فلما كان بالروحاء : رَدَّ أبا لبابة ، واستعمله على المدينة .

ودفع اللواء إلى مُصْعب بن عمير ، والراية إلى علي ، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ .

ولما قرب من الصفراء بعث بَسْبَسَ بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء يتحسسان أخبار العير .

وبلغ أبا سفيان مخرجُ رسول الله ﷺ . فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري . وبعثه حثيثاً إلى مكة ، مستصرخاً قريشاً بالنفير إلى عيرهم . فنهضوا مسرعين . ولم يتخلف من أشرافهم سوى أبي لهب . فإنه عوَّض عنه رجلا بِجُعْل . وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب . ولم يتخلف عنهم من بطون قريش إلا بني عدي فلم يشهدها منهم أحد . وخرجوا من

ديارهم ، كما قال تعالى : ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١) فجمعهم على غير ميعاد ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾(٢) .

ولما بلغ رسولَ الله ﷺ خروج قريش . استشار أصحابه . فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً . فتكلم المهاجرون . ثم ثالثاً . فعلمت الأنصار أن رسول الله إنما يعنيهم . فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يا رسول الله وكان إنما يعنيهم ، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه في ديارهم وكأنك تخشى أن تكون الأنصار ترى عليهم : أن لا ينصروك إلا في ديارهم . وإني أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم . فامْضِ بنا حيث شئت ، وصِلْ حبْل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت . وأعطنا ما شئت . وما أخذت منها كان أحبَّ إلينا مما تركت . فوالله لئن سرت بنا حتى تبلغ البَرْك من غُمدان لنسيرن معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك .

وقال المقداد بن الأسود : إذن لا نقول كما قال قوم موسى لموسى : «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» ولكن نقاتل من بين يديك ، ومن خلفك ، وعن يمينك ، وعن شمالك .

فأشرق وجه رسول الله ﷺ بما سمع منهم . وقال : «سيروا وأبشروا . فإن الله وعدني إحدى الطائفتين . وإني قد رأيت مصارع القوم» .

وكره بعض الصحابة لقاء النفير ، وقالوا : لم نستعدَّ لهم ، فهو

---

(١) من الآية ٤٧ من سورة الأنفال .

(٢) من الآية ٤٢ من سورة الأنفال .

قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۞ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾(١).

وسار رسول الله ﷺ إلى بدر.

وخفض أبو سفيان. فلحق بساحل البحر. وكتب إلى قريش: أن ارجعوا فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم. فأتاهم الخبر. فَهَمُّوا بالرجوع. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نقدم بدراً، فنقيم بها، نُطْعِم من حضرنا ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان. وتسمع بنا العرب. فلا تزال تهابنا أبداً وتخافنا.

فأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع، فلم يفعلوا. فرجع هو وبنو زهرة. فلم يزل الأخنس في بني زُهرة مطاعاً بعدها.

وأراد بنو هاشم الرجوع. فقال أبو جهل: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع، فساروا، إلا طالب بن أبي طالب. فرجع.

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل على ماء أدنى مياه بدر. فقال الحُباب ابن المنذر: إن رأيت أن نسير إلى قُلُبٍ -قد عرفناها- كثيرة الماء عذبة، فننزل عليها. ونُغَوِّر ما سواها من المياه؟ وأنزل الله تلك الليلة مطراً واحداً، صَلّب الرمل. وثبت الأقدام. وربط على قلوبهم.

ومشى رسول الله ﷺ في موضع المعركة. وجعل يشير بيده، ويقول: «هذا مصرع فلان. وهذا مصرع فلان إن شاء الله» فما تعدى أحد منهم

---

(١) الآيات من ٥-٨ من سورة الأنفال.

موضع إشارته ﷺ .

فلما طلع المشركون قال رسول الله ﷺ : «اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها ، جاءت تُحادكَ ، وتكذب رسولك . اللهم فنصرَكَ الذي وعدتني . اللهم أحْنِهم الغداة» وقام ورفع يديه ، واستنصر ربه ، وبالغ في التضرع ورفع يديه حتى سقط رداؤه . وقال «اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك . اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تُعْبَد في الأرض بعدُ»(١) .

فالتزمه أبو بكر الصديق من ورائه ، وقال : حَسْبُك مناشدتك ربك ، يا رسول الله . أبشر ، فوالذي نفسي بيده لينجزن الله لك ما وعدك .

واستنصر المسلمون الله واستغاثوه ، فأوحى الله إلى الملائكة : ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾(٢) وأوحى الله إلى رسوله : ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(٣) بكسر الدال وفتحها . قيل : إردافاً لكم . وقيل : يَرْدُف بعضهم بعضاً ، لم يجيئوا دفعة واحدة .

فلما أصبحوا أقبلت قريش في كتائبها . وقلل الله المسلمين في أعينهم ، حتى قال أبو جهل -لما أشار عتبة بن ربيعة بالرجوع ، خوفاً على قريش من التفرق والقطيعة ، إذا قتلوا أقاربهم- أن ذلك ليس به . ولكنه -يعني عتبة- عرف أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه ، فقد تخوفكم عليه .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي كما في جامع الأصول .

(٢) من الآية ١٢ سورة الأنفال .

(٣) من الآية ٩ من سورة الأنفال .

وقلل الله المشركين أيضاً في أعين المسلمين ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وأمر أبو جهل عامر بن الحضرمي -أخا عمرو بن الحضرمي- أن يطلب دم أخيه . فصاح وكشف عن اسْتِه يصرخ : واعمراه ، واعَمْراه فحمي القوم . ونشبت الحرب .

وعدل رسول الله ﷺ الصفوف ، ثم انصرف وغفا غفوة ، وأخذ المسلمين النعاس ، وأبو بكر الصديق مع رسول الله ﷺ يحرسه . وعنده سعد بن معاذ ، وجماعة من الأنصار على باب العريش . فخرج رسول الله ﷺ يثب في الدرع . ويتلو هذه الآية : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(١) .

ومنح الله المسلمين أكتاف المشركين . فتناولوهم قتلا وأسراً . فقتلوا سبعين ، وأسروا سبعين .

وخرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة . يطلبون المبارزة . فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ، فقالوا : أكفاء كرام . ما لنا بكم من حاجة . إنما نريد من بني عمنا . فبرز إليهم حمزة ، وعُبيدة بن الحارث بن المطلب ، وعلي بن أبي طالب . فَقَتَلَ علي قِرْنَه الوليد ، وقتل حمزةُ قرنه شيبة . واختلف عبيدة وعتبة ضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه . فكَرَّ حمزة وعلي على قرن عبيدة فقتلاه . واحتملا عُبيدة ، قد قطعت رجله . فقال : لو كان أبو طالب حياً لعلم أنّا أولى منه بقوله :

ونُسْلِمه حتى نُصَرَّع حوله ونذْهَلَ عن أبنائنا والحلائل

(١) آية ٤٥ من سورة القمر .

ومات بالصفراء . وفيهم نزلت : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ الآية[1] فكان علي رضي الله عنه يقول : «أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله عز وجل يوم القيامة» .

ولما عزمت قريش على الخروج . ذكروا ما بينهم وبين بني كنانة من الحرب . فتبدى لهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك . فقال : «لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم» فلما تعبأوا للقتال ، ورأى الملائكة : فَرَّ ونكص على عقبيه ، فقالوا : إلى أين يا سراقة؟ فقال : «إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب» .

وظن المنافقون ومَن في قلبه مرض . أن الغلبة بالكثرة ، فقالوا : «غَرَّ هؤلاء دينهم» فأخبر الله سبحانه : أن النصر إنما هو بالتوكل على الله وحده .

ولما دنا العدو : قام رسول الله ﷺ ، فوعظ الناس . وذكرهم بما لهم في الصبر والثبات من النصر . وأن الله قد أوجب الجنة لمن يستشهد في سبيله . فأخرج عمير بن الحمام بن الجموح تمرات من قَرْنه يأكلهن . ثم قال : «لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة» فرمى بهن ، وقاتل حتى قتل فكان أول قتيل .

وأخذ رسول الله ﷺ مِلء كَفِّه تراباً ، فرمى به في وجوه القوم . فلم تترك رجلا منهم إلا ملأت عينيه . فهو قوله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2] .

---

(١) من الآية ١٩ سورة الحج .

(٢) من الآية ١٧ سورة الأنفال .

واستفتح أبو جهل . فقال : اللهم أَقْطَعنا للرحم ، وأتانا بما لا نعرف فأحْنِه الغداة .

ولما وضع المسلمون أيديهم في العدو -يقتلون ويأسرون- وسعد بن معاذ واقف عند رسول الله ﷺ في رجال من الأنصار في العريش -رأى رسولُ الله ﷺ في وجه سعد الكراهية . فقال : «كأنك تكره ما يصنع الناس؟» قال : أجل ، والله يا رسول الله ، كانت أولَ وقعة أوقعها الله في المشركين . وكان الإثخان في القتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال .

ولما بردت الحرب ، وانهزم العدو ، قال رسول الله ﷺ : «من ينظر لنا ما صنع أبو جهل؟»(١) فانطلق ابن مسعود ، فوجده قد ضربه مُعَوِّذ وعوف -ابنا عَفْراء- حتى بَرَد . فأخذ بلحيته ، فقال : أنت أبو جهل؟ فقال : لمن الدائرة اليوم؟ قال : لله ورسوله . ثم قال له : هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال : وهل فوق رجل قتله قومه؟ فاحْتَزَّ رأسه عبد الله بن مسعود . ثم أتى النبي ﷺ . فقال : قتلته ، فقال : «الله الذي لا إله إلا هو؟ -ثلاثاً- ثم قال : الحمد لله الذي صدق وعده . ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده . انطلقْ فأرِنيه . فانطلقنا ، فأريته إياه . فلما وقف عليه ، قال : هذا فرعون هذه الأمة» .

وأسَر عبدُ الرحمن بن عوف أُمية بن خلف ، وابنه علياً . فأبصره بلال -وكان يعذبه بمكة- فقال : رأس الكفر أُمية؟ لا نجوت إن نجا . ثم استحمى جماعةً من الأنصار . واشتد عبد الرحمن بهما ، يحجزهما منهم ، فأدركوهم . فشغلهم عن أُمية بابنه علي ، ففرغوا منه ، ثم لحقوهما ،

---

(١) الحديث رواه البخاري .

فقال له عبد الرحمن : ابرك ، فبرك ، وألقى عليه عبد الرحمن بنفسه . فضربوه بالسيوف من تحته حتى قتلوه . وأصاب بعضُ السيوف رِجْل عبدالرحمن .

وكان أمية قد قال له قبل ذاك : مَن المعلم في صدره بريش النعام؟ فقال له : ذاك حمزة بن عبد المطلب . قال : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل .

وانقطع يومئذ سيف عُكّاشة بن مِحْصَن . فأعطاه النبي ﷺ جَذْلا من حطب ، فلما أخذه وَهَزَّه : عاد في يده سيفاً طويلاً ، فلم يزل يقاتل به حتى قتل يوم الردة .

ولما انقضت الحرب : أقبل النبي ﷺ ، حتى وقف على القتلى . فقال : «بئس عشيرة النبي كنتم . كذبتموني ، وصدقني الناس . وخذلتموني ، ونصرني الناس وأخرجتموني ، وآواني الناس» .

ثم أمر بهم فسُحبوا حتى أُلقوا في القَليب -قَليب بدر- ثم وقف عليهم ، فقال : «يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا فلان ، ويا فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من أقوام قد جَيّفوا؟ فقال ما أنت بأسمع لما أقول منهم» .

ثم ارتحل مؤيداً منصوراً ، قرير العين ، معه الأسرى والمغانم .

فلما كان بالصفراء : قسم الغنائم ، وضرب عنق النضر بن الحارث .

ثم لما نزل بعِرْق الظبية : ضرب عنق عقبة بن أبي مُعَيْط .

ثم دخل المدينة مؤيداً منصوراً . قد خافه كل عدو له بالمدينة .

فأسلم بشر كثير من أهل المدينة، ودخل عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين وأصحابه في الإسلام.

وجملة من حضر بدراً: ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا. واستشهد منهم أربعة عشر رجلا.

قال ابن إسحاق: كان أُناس قد أسلموا. فلما هاجر رسول الله ﷺ حبسهم أهلهم بمكة، وفتنوهم فافتتنوا. ثم ساروا مع قومهم إلى بدر. فأصيبوا فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية(١).

قسم غنائم بدر:

ثم إن رسول الله ﷺ أمر بالغنائم فجمعت، فاختلفوا. فقال من جمعها: هي لنا. وقال من هزم العدو: لولانا ما أصبتموها، وقال الذين يحرسون رسول الله ﷺ: ما أنتم بأحق بها منّا، قال عبادة بن الصامت: فنزعها الله من أيدينا. فجعلها إلى رسول الله ﷺ. فقسمه بين المسلمين وأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآيات(٢).

وذكر ابن إسحاق عن نُبَيه بن وهب. قال: «فَرَّق رسول الله ﷺ الأسرى على أصحابه. وقال: استوصوا بالأسرى خيراً» فكان أبو عزيز بن عمير عند رجل من الأنصار، فقال له أخوه مصعب: شُدَّ يدك به. فإن أخته ذاتُ متاع. فقال أبو عزيز: يا أخي، هذه وصيتك بي؟ فقال

(١) من الآية ٩٧ من سورة النساء.

(٢) الآيات من أول سورة الأنفال.

مصعب : إنه أخي دونك . قال عزيز : وكنت مع رهط من الأنصار حين قفلوا ، فكانوا إذا قدموا طعاماً خصوني بالخبز ، وأكلوا التمر . لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ما يقع في يد رجل منهم كِسْرة إلا نفحني بها . قال : فأستحيي فأردها على أحدهم . فيردها عليَّ ، ما يمسها .

أسارى بدر :

واستشار رسول الله ﷺ أصحابه في الأسرى ، وهم سبعون . وكذلك القتلى سبعون أيضاً . فأشار الصديق : أن يؤخذ منهم فدية ، تكون لهم قوة . ويطلقهم ، لعل الله يهديهم للإسلام . فقال عمر : لا والله ، ما أرى ذلك . ولكني أرى أن تمكننا ، فنضرب أعناقهم . فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديد الشرك ، فهوى رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر . فقال : «إن الله عز وجل لَيُلَيِّن قلوب رجال فيه ، حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله عز وجل ليشدد قلوب رجال فيه ، حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مَثَلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم ، إذ قال : «فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم» وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى ، إذ قال : «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» وإن مثلك يا عمر ، كمثل موسى ، قال : «ربنا اطمس على أموالهم واشدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» وإن مثلك يا عمر ، كمثل نوح ، قال : «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» ثم قال : أنتم اليوم عالة . فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء ، أو ضرب عنق» فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآيتين[1] .

---

(١) الآيتان ٦٧-٦٨ من سورة الأنفال .

قال عمر : «فلما كان من الغد ، غدوت على رسول الله ﷺ ، فإذا هو قاعد -هو وأبو بكر- يبكيان . فقلت : يا رسول الله ، أخبرني ما يبكيك وصاحبَك؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما ، فقال : أبكي للذي عَرَض عَليَّ أصحابُك من الغد : من أخذهم الفداء ، فقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة -لشجرة قريبة منه- وقال : لو نزل عذاب ما سلم منه إلا عمر»(١) .

وقال الأنصار للنبي ﷺ : نريد أن نترك لابن أختنا العباس فداءه ، فقال : «لا تدعوا منه درهما» .

ثم دخلت السنة الثالثة من الهجرة .

غزوة بني قينقاع :

فكانت فيها غزوة بني قينقاع . وكانوا من يهود المدينة . فنقضوا العهد . فحاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة . فنزلوا على حكمه ، فشفع فيهم عبد الله بن أبيّ بن سلول . وألح على رسول الله ﷺ فيهم . فأطلقهم له ، وكانوا سبعمائة رجل . وهم رهط عبد الله بن سلام .

غزوة أحد :

وفيها كانت وقعة أُحد في شوال .

وذلك : أن الله تبارك وتعالى لما أوقع بقريش يوم بدر ، وترأس فيهم أبو سفيان ، لذهاب أكابرهم ، أخذ يؤلب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين . ويجمع الجموع . فجمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش ،

---

(١) الحديث رواه أحمد ومسلم كما في منتقى الأخبار .

والحلفاء والأحابيش . وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا . ثم أقبل بهم نحو المدينة . فنزل قريباً من جبل أحد .

فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه في الخروج إليهم . وكان رأيه أن لا يخرجوا . فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه السكك ، والنساء من فوق البيوت ، ووافقه عبد الله بن أبيّ -رأس المنافقين- على هذا الرأي . فبادر جماعة من فضلاء الصحابة -ممن فاته بدر- وأشاروا على رسول الله بالخروج . وألحوا عليه . فنهض ودخل بيته ، ولبس لأْمته ، وخرج عليهم ، فقالوا : اسْتَكْرهنا رسول الله ﷺ على الخروج . ثم قالوا : إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل ، فقال : «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأْمته : أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه» .

فخرج في ألف من أصحابه ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

وكان رسول الله ﷺ رأى رؤيا : رأى «أن في سيفه ثُلْمة ، وأن بقراً تذبح . وأنه يدخل يده في درع حصينة . فتأول الثُّلمة : برجل يصاب من أهل بيته ، والبقر : بنفر من أصحابه يقتلون ، والدرع بالمدينة» فخرج ، وقال لأصحابه : «عليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله به . فافعلوا» .

فلما كان بالشوط -بين المدينة وأُحد- انخزل عبد الله بن أبيّ بنحو ثلث العسكر ، وقال : عصاني ، وسمع من غيري ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟ فرجع . وتبعهم عبد الله بن عمرو -والد جابر- يحرضهم على الرجوع . ويقول : «قاتلوا في سبيل الله ، أو ادفعوا ، قالوا :

لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع» فرجع عنهم وسبّهم .

وسأل نفر من الأنصار رسول الله ﷺ : أن يستعينوا بحلفائهم من يهود . فأبى . وقال : «من يخرج بنا على القوم من كَثَب؟»

فخرج به بعض الأنصار ، حتى سلك في حائط لمربع بن قيظي من المنافقين -وكان أعمى- فقام يحثو التراب في وجوه المسلمين ، ويقول : لا أُحِل لك أن تدخل في حائطي ، إن كنت رسول الله ، فابتدروه ليقتلوه . فقال رسول الله : «لا تقتلوه ، فهذا أعمى القلب أعمى البصر» .

ونفذ حتى نزل الشعب من أُحد ، في عُدْوة الوادي الدنيا . وجعل ظهره إلى أحد . ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم .

فلما أصبح يومُ السبت تعبأ للقتال . وهو في سبعمائة ، منهم خمسون فارساً واستعمل على الرماة -وكانوا خمسين- عبد الله بن جبير . وأمرهم : أن لا يفارقوا مركزهم ، ولو رأوا الطير تختطف العسكر . وأمرهم : أن ينضحوا المشركين بالنبل ، لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم .

وظاهَر رسولُ الله ﷺ بين درعين .

وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام وعلى الأخرى : المنذر بن عمرو . واستعرض الشباب يومئذ . فرد من استصغر عن القتال -كابن عمر ، وأسامة بن زيد ، والبراء ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت ، وعرابة الأوسي- وأجاز من رآه مطيقاً .

وتعبأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف . وفيهم مائتا فارس . فجعلوا على ميمنتهم : خالد بن الوليد . وعلى الميسرة : عكرمة بن أبي جهل .

ودفع رسول الله ﷺ سيفه إلى أبي دُجانة .

وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر -عبد عمرو بن صيفي- الفاسق . وكان يسمى الراهب . وهو رأس الأوس في الجاهلية . فلما جاء الإسلام شَرِقَ به ، وجاهر بالعداوة . فذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ووعدهم : بأن قومه إذا رأوه أطاعوه . فلما ناداهم ، وتَعَرَّف إليهم ، قالوا : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق . فقال : لقد أصاب قومي بعدي شر . ثم قاتل المسلمين قتالا شديداً . ثم راضخهم بالحجارة .

وأبْلَى يومئذ أبو دجانة ، وطلحة ، وحمزة ، وعلي ، والنضر بن أنس ، وسعد بن الربيع بلاءً حسناً .

وكانت الدولة أول النهار : للمسلمين ، فانهزم أعداء الله ، وولوا مدبرين . حتى انتهوا إلى نسائهم . فلما رأى ذلك الرماة ، قالوا : الغنيمةَ ، الغنيمة . فذكّرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ ، فلم يسمعوا . فأخلوا الثغر ، وكَرَّ فرسان المشركين عليه ، فوجدوه خالياً . فجاءوا منه . وأقبل آخرهم حتى أحاطوا بالمسلمين فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة -وهم سبعون- وولى الصحابة .

وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ ، فجرحوه جراحات ، وكسروا رباعيته ، وقُتل مصعب بن عمير بين يديه . فدفع اللواء إلى علي بن أبي طالب .

وأدركه المشركون يريدون قتله . فحال دونه نحو عشرة حتى قتلوا . ثم جالدهم طلحة بن عبيد الله حتى أجهضهم عنه . وتَرَّس أبو دجانة عليه بظهره ، والنّبْل يقع فيه وهو لا يتحرك .

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان . فأتى بها رسولَ الله ﷺ فردها بيده . فكانت أحسن عينيه .

وصرخ الشيطان : إن محمداً قد قُتل ، فوقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين .

فَمَرَّ أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم ، فقالوا : قتل رسول الله ﷺ فقال : ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل الناس ، ولقي سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد ، إني لأجد ريح الجنة من دون أُحد . فقاتل حتى قتل . ووُجِد به سبعون جراحة .

وقَتَل وَحْشي الحبشي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه . رماه بحربة على طريقة الحبشة .

وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين . فكان أولَ من عرفه تحت المِغْفَر : كعب بن مالك ، فصاح بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، هذا رسول الله ، فأشار إليه : أن اسكت . فاجتمع إليه المسلمون . ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه .

فلما أسندوا إلى الجبل أدركه أُبي بن خلف على فرس له ، كان يزعم بمكة : أنه يقتل عليه رسول الله ﷺ . فلما اقترب منه طعنه رسول الله ﷺ في تَرْقُوته ، فَكَرَّ منهزماً . فقال له المشركون : ما بك من بأس . فقال : والله لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين . فمات بسَرِف .

وحانت الصلاة ، فصلى بهم رسول الله ﷺ جالساً .

وشد حنظلة بن أبي عامر على أبي سفيان . فلما تمكن منه حمل عليه شداد بن الأسود فقتله ، وكان حنظلة جُنباً . فإنه حين سمع الصيحة وهو على بطن امرأته -قام من فوره إلى الجهاد ، فأخبر رسول الله ﷺ : أن الملائكة تغسله .

وكان الأصيرم -عمرو بن ثابت بن وَقْش- يأبى الإسلام . وهو من بني عبد الأشهل . فلما كان يوم أُحد ، قذف الله الإسلام في قلبه ، للحسنى التي سبقت له . فأسلم وأخذ سيفه . فقاتل ، حتى أثبتته الجراح ، ولم يعلم أحد بأمره . فلما طاف بنو عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم وجدوا الأصيرم -وبه رمق يسير- فقالوا : والله إن هذا الأصيرم . ثم سألوه : ما الذي جاء بك؟ أحَدب على قومك ، أم رغبة في الإسلام؟ فقال : بل رغبة في الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله وأسلمت . ومات من وقته . فذكروه لرسول الله ﷺ ، فقال : «هو من أهل الجنة» ولم يصل لله سجدة قط .

ولما انقضت الحرب : أشرف أبو سفيان على الجبل ، ونادى : أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه فقال : أفيكم ابن الخطاب؟ فلم يجيبوه . فقال : أما هؤلاء : فقد كُفيتموهم . فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله ، إن الذي ذكرتَهم أحياء ، وقد أبقى الله لك منهم ما يسوءك . ثم قال : اعْلُ هُبَل فقال رسول الله ﷺ : «ألا تجيبوه؟» قالوا : ما نقول؟ قال «قولوا : الله أعلى وأجل» ثم قال : لنا العزى ، ولا عُزَّى لكم ، قال : «ألا تجيبوه؟» قالوا : ما نقول؟ قال : «قولوا : الله مولانا . ولا مولى لكم» ثم قال : يوم بيوم بدر . والحرب سِجال ، فقال عمر : لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار .

وأنزل الله عليهم النعاس في بدر وفي أحد . والنعاس في الحرب من الله . وفي الصلاة ومجالس الذكر من الشيطان .

وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله ﷺ .

ففي الصحيحين عن سعد قال : «رأيت رسول الله يوم أُحد ، ومعه رجلان يقاتلان ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، وما رأيتهما قبل ولا بعد» .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار -وهو يتشحط في دمه- فقال : يا فلان ، أشعرت أن محمداً قُتل؟ فقال الأنصاري : إن كان قد قتل فقد بَلّغ ، فقاتلوا عن دينكم فنزل : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية(١) .

وكان يوم أُحد يوم بلاء وتمحيص ، اختبر الله عز وجل به المؤمنين . وأظهر به المنافقين . وأكرم فيه من أراد كرامته بالشهادة . فكان مما نزل من القرآن في يوم أُحد : ستون آية من آل عمران ، أولها : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ الآيات(٢) .

ولما انصرفت قريش تلاوموا فيما بينهم . وقالوا : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شَوْكتهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقي منهم رءوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل بقيتهم .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فنادى في الناس بالمسير إليهم ، وقال : «لا

---

(١) من الآية ١٤٤ من سورة آل عمران .

(٢) الآيات ١٢١-١٨٠ من سورة آل عمران .

يخرج معنا إلا من شهد القتال» فقال له ابن أُبيّ: أركب معك؟ قال: «لا».

فاستجاب له المسلمون -على ما بهم من القَرْح الشديد- وقالوا: سمعاً وطاعة.

وقال جابر: يا رسول الله، إني أُحب ألا تشهد مشهداً إلا كنت معك. وإنما خَلّفني أبي على بناته، فائْذَنْ لي أسر معك. فأَذنَ له.

فسار رسول الله ﷺ، والمسلمون معه، حتى بلغوا حمراء الأسد، فبلغ ذلك أبا سفيان ومن معه، فرجعوا إلى مكة. وشرط أبو سفيان لبعض المشركين شرطاً على أنه إذا مرَّ بالنبي ﷺ وأصحابه أن يخوفهم، ويذكر لهم أن قريشاً أجمعوا للكرة عليهم ليستأصلوا بقيتكم. فلما بلغهم ذلك قالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

ثم دخلت السنة الرابعة.

فكانت فيها وقعة خبيب وأصحابه، في صفر.

وقعة بئر معونة:

وفي هذا الشهر بعينه من السنة المذكورة: كانت وقعة أهل بئر معونة.

وفي شهر ربيع الأول: كانت غزوة بني النضير. ونزل فيها سورة الحشر.

ثم دخلت السنة الخامسة.

غزوة المريسيع:

فكانت فيها غزوة المريسيع على بني المصْطلِق، فأغار عليهم رسول الله ﷺ،

وهم غارُّون . فسبى رسول الله ﷺ النساء ، والنعم ، والشاء .

وكان من جملة السبي : جويرية بنت الحارث ، سيد القوم ، وقعت في سهم ثابت بن قيس . فكاتبها . فأدى عنها رسول الله ﷺ ، وتزوجها ، فأعتق المسلمون -بسبب هذا التزوج- مائة أهل بيت من بني المصطلق . وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ .

قصة الإفك :

وفي هذه الغزوة : كانت قصة الإفك .

وذلك : أن عائشة رضي الله عنها خرج بها رسول الله ﷺ معه بقرعة -وتلك كانت عادته مع نسائه- فلما رجعوا : نزل في طريقهم بعض المنازل . فخرجت عائشة لحاجتها ، ثم رجعت . ففقدت عقداً عليها ، فرجعت تلتمسه . فجاء الذين يُرَحِّلون هَوْدَجها فحملوه . وهم يظنونها فيه . لأنها صغيرة السن . فرجعت -وقد أصابت العقد- إلى مكانهم . فإذا ليس به داع ولا مجيب . فقعدت في المنزل ، وظنت أنهم يفقدونها ، ويرجعون إليها . فغلبتها عيناها . فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعَطِّل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، زوجة رسول الله ﷺ ؟ وكان صفوان قد عَرَّس في أُخريات الجيش ، لأنه كان كثير النوم . فلما رآها عرفها -وكان يراها قبل الحجاب- فاسترجع . وأناخ راحلته ، فركبت ، وما كلمها كلمة واحدة . ولم تسمع منه إلا استرجاعه . ثم سار يقود بها ، حتى قدم بها . وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة . فلما رأى ذلك الناس : تكلم كل منهم بشاكلته . ووجد رأس المنافقين ، عدو الله عبد الله بن أُبي متنفساً . فتنفس من كرب النفاق والحسد . فجعل يستحكي الإفك ، ويجمعه ويفرقه .

وكان أصحابه يتقربون إليه به .

فلما قدموا المدينة . أفاض أهل الإفك في الحديث ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم . ثم استشار في فراقها ، فأشار عليه علي بفراقها ، وأشار عليه أسامة بإمساكها .

واقتضى تمام الابتلاء : أن حبس الله عن رسوله الوحي شهراً في شأنها ، ليزداد المؤمنون إيماناً ، وثباتاً على العدل والصدق ، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً ، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها ، وتتم نعمة الله عليهم ، ولينقطع رجاؤها من المخلوق ، وتيأس من حصول النصر والفرج إلا من الله .

فدخل عليها رسول الله ﷺ ، وعندها أبواها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «يا عائشة ، إن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت قد ألممت بذنب فاستغفري . فإن العبد إذا اعترف بذنبه . ثم تاب ، تاب الله عليه» .

قالت : لأبيها : أجب عني رسول الله . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله .

فقالت لأمها مثل ذلك ، وقالت أمها مثل ذلك .

قالت : فقلت : إن قلت إني بريئة -والله يعلم أني بريئة- لا تصدقوني . ولا أجد لي ولكم مثلا ، إلا أبا يوسف ، حيث قال : «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» .

قالت : فنزل الوحي على رسول الله ﷺ . فأما أنا : فقلت : إن الله لا يقول إلا الحق . وأما أبواي : فوالذي ذهب بأنفاسهما ، ما أقلع عن

رسول الله ﷺ ، إلا خفت أن أرواحهما ستخرجان . فكان أول كلمة قالها رسول الله ﷺ : «أما الله يا عائشة : فقد برأَك»[1] .

فقال أبواى : قومي إلى رسول الله ﷺ . قلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله .

وكان حسان رضي الله عنه ممن قيل عنه : إنه يتكلم مع أهل الإفك ، فقال يعتذر إلى عائشة ، ويمدحها :

حَصان رَزان ، ما تُزَن بريبة
وتصبح غَرْثَى من لحوم الغوافل

عقيلة حَي من لؤي بن غالب
كرام المساعي مجدهم غير زائل

مهذبة ، قد طَيّب الله خِيمها
وطهرها من كل سوء وباطل

لئن كان ما قد قيل عني قُلْتُه
فلا رَفَعتْ سوطي إليَّ أناملي

وكيف؟ وودي ما حييت ، ونصرتي
لآل رسول الله زين المحافل

وكانت عائشة لا ترضى أن يذكر حسان بشيء يكرهه ، تقول : إنه الذي يقول :

---

(١) حديث قصة الإفك رواه البخاري ومسلم من حديث الزهري .

فإن أبي ، ووالدتي ، وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

فأنزل الله تعالى في هذه القصة أول سورة النور من قوله :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾(١) إلى آخر القصة .

غزوة الأحزاب :

وفي هذه السنة -وهي سنة خمس- كانت وقعة الخندق في شوال .

وسببها : أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين يوم أُحد ، خرج أشرافهم . كسَلاَّم بن أبي الحُقَيق وغيره إلى قريش بمكة ، يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ ، ووعدهم من أنفسهم النصر لهم . فأجابتهم قريش . ثم خرجوا إلى غطفان . فاستجابوا لهم ، ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب .

فخرجت قريش -وقائدهم أبو سفيان- في أربعة آلاف . ووافقهم بنو سليم بمَرِّ الظهران ، وبنو أسد ، وفزارة ، وأشجع وغيرهم . وكان مَنْ وافَى الخندق من المشركين ، عشرة آلاف .

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه : استشار أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خَندق يحول بين العدو وبين المدينة . فأمر به رسول الله ﷺ . فبادر إليه المسلمون . وعمل فيه بنفسه . وكان في حفره من آيات نبوته ما قد تواتر الخبر به .

وخرج ﷺ عليهم ، وهم يحفرون في غداة باردة . فلما رأى ما بهم من الشدة والجوع . قال :

---

(١) الآيات ١١-٢٦ سورة النور .

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فاغفر للأنصار، والمهاجرة

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ما بقينا أبداً

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين . فتحصن بالجبل من خلفه -جبل سَلْع- وبالخندق أمامه . وأمر بالنساء والذراري ، فجُعلوا في آطام المدينة .

وانطلق حُيي بن أخطب إلى بني قريظة ، فدنا من حصنهم ، فأبَى كَعْبُ بن أسد : أن يفتح له . فلم يزل يكلمه حتى فتح له . فلما دخل الحصن قال : جئتك بعز الدهر . جئتك بقريش وغطفان وأسد ، على قاداتها لحرب محمد ، قال : بل جئتني والله بذل الدهر ، جئتني بجَهام قد أراق ماءه . فهو يُرْعِد ويبرق ، وليس فيه شيء .

فلم يزل به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ . ودخل مع المشركين . وسُرَّ بذلك المشركون ، وشرط كعب على حُيي : أنهم إن لم يظفروا بمحمد : أن يجيء حتى يدخل معهم في حصنهم ، فيصيبه ما يصيبهم فشرط ذلك ووفى له .

وبلغ رسولَ الله ﷺ الخبر . فبعث إليهم السعدين : -سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة- وخوات بن جبير ، وعبد الله بن رواحة ليتعرفوا الخبر .

فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون . وجاهروهم بالسب . ونالوا من رسول الله ﷺ .

فانصرفوا ولَحنوا لرسول الله ﷺ لحناً .

فعظم ذلك على المسلمين . فقال رسول الله ﷺ «الله أكبر ، أبشروا ، يا معشر المسلمين» .

واشتد البلاء ، ونجم النفاق . واستأذن بعض بني حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة . وقالوا : ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾(١) .

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً .

ولم يكن بينهم قتال ، لأجل الخندق ، إلا أن فوارس من قريش -منهم عمرو بن عبد وُدٍّ -أقبلوا نحو الخندق . فلما وقفوا عليه قالوا : إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها . ثم تيمموا مكاناً ضيقاً منه ، وجالت بهم خيلهم في السبخة ، ودعوا إلى البراز . فانتدب لعمرو: علي بن أبي طالب ، فبارزه . فقتله الله على يدي عليّ . وكان من أبطال المشركين ، وانهزم أصحابه .

ولما طالت هذه الحال على المسلمين : أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف -رئيسي غطفان- على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما . وجرت المفاوضة على ذلك . واستشار رسول الله ﷺ السعدين ، فقالا : إن كان الله أمرك : فسمعاً وطاعة . وإن كان شيئاً تحب أن تصنعه صنعناه . وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلا ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك ، وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة ، إلا قِرىً أو بيعاً . أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف .

فصوب رأيهما . وقال : «إنما هو شيء أصنعه لكم ، لما رأيت العرب قد

---

(١) من الآية ١٣ سورة الأحزاب .

رمتكم عن قوس واحدة» .

ثم إن الله عز وجل -وله الحمد- صنع أمراً عنده خذل به العدو .

فمن ذلك : أن رجلا من غطفان -يقال له : نعيم بن مسعود- جاء إلى رسول الله ﷺ . فقال : قد أسلمتُ ، فمرني بما شئت . فقال : «إنما أنت رجل واحد . فَخَذِّل عنّا ما استطعت . فإن الحرب خِدْعَة» .

فذهب إلى بني قريظة -وكان عشيراً لهم- فدخل عليهم ، وهم لا يعلمون بإسلامه . فقال : إنكم قد حاربتم محمداً ، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا انْشَمروا . قالوا : فما العمل؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . فقالوا قد أشرت بالرأي . ثم مضى إلى قريش فقال : هل تعلمون ودِّى لكم ونصحي؟ قالوا : نعم . قال : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم ، وإنهم قد أرسلوا إلى محمد : أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يمالئونه عليكم ، فإن سألوكم فلا تعطوهم . ثم ذهب إلى غطفان . فقال لهم مثل ذلك .

فلما كانت ليلة السبت من شوال بعثوا إلي يهود : إنا لسنا معكم بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، فاغْدُوا بنا إلى محمد حتى نناجزه ، فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما أصاب مَنْ قبلنا حين أحدثوا فيه . ومع هذا فلا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن .

فلما جاءتهم رسلهم قالوا : قد صدقكم والله نعيم . فبعثوا إليهم : إنا والله لا نبعث إليكم أحداً . فقالت قريظة : قد صدقكم والله نعيم . فتخاذل الفريقان .

وأرسل الله على المشركين جنداً من الريح ، فجعلت تقوض خيامهم ،

ولا تدع لهم قِدْراً إلا كفأتها ، ولا طُنُباً إلا قلعته ، وجنداً من الملائكة يزلزلون بهم ، ويلقون في قلوبهم الرعب ، كما قال الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾(١) .

وأرسل رسول الله ﷺ حُذيفة بن اليَمان يأتيه بخبرهم . فوجدهم على هذه الحال ، وقد تهيأوا للرحيل . فرجع إليه ، فأخبره برحيلهم .

فلما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق ، راجعاً والمسلمون إلى المدينة . فوضعوا السلاح . فجاءه جبريل وقت الظهر ، فقال : أقد وضعتم السلاح؟ إن الملائكة لم تضع أسلحتها ، انهض إلى هؤلاء -يعني بني قريظة- فنادى رسول الله ﷺ : «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»(٢) .

فخرج المسلمون سراعاً ، حتى إذا دنا رسول الله ﷺ من حصونهم ، قال : «يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟» وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار . وقذف الله في قلوبهم الرعب . فقال لهم رئيسهم كعب بن أسد : إني عارض عليكم خلالا ثلاثاً ، خذوا أيها شئتم : نصدق هذا الرجل ونتبعه . فإنكم تعلمون : أنه النبي الذي تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة قالوا لا نفارق حكم التوراة أبداً . قال : فاقتلوا أبناءكم ونساءكم واخرجوا إليه مصلتي

---

(١) من الآية ٩ من سورة الأحزاب .

(٢) الحديث رواه البخاري عن ابن عمر في باب مرجع النبي- ﷺ- من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ورواه مسلم أيضاً .

سيوفكم حتى يحكم الله بينكم وبينه . قالوا : فما خير العيش بعد أبنائنا ونسائنا؟ قال : فانزلوا الليلة . فعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوكم فيها لأنها ليلة السبت -لعلنا نصيب منهم غرة : قالوا : لا نفسد سبتنا . وقد علمت ما أصاب من اعتدوا في السبت . قال ما بات رجل منكم- منذ ولدته أمه- ليلة من الدهر حازماً . ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فحكّمَ فيهم سعد بن معاذ فحكم : أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال : وتسبى النساء والذراري[1] .

وأنزل الله في غزوة الخندق صدر سورة الأحزاب . وذكر قصتهم في قوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾[2] .

ثم دخلت السنة السادسة .

صلح الحديبية :

وفيها كانت وقعة الحديبية . وعدة الصحابة إذ ذاك ألف وأربعمائة . وهم أهل الشجرة ، وأهل بيعة الرضوان .

خرج رسول الله ﷺ بهم معتمراً ، لا يريد قتالا . فلما كانوا بذي الحليفة ، قَلّد رسول الله ﷺ الهَدْي ، وأشْعَرَه ، وأحرم بالعمرة وبعث عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان أتاه عينه ، فقال : إني تركت كَعْب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا جموعاً ، وهم

---

(١) قصة حكم سعد بن معاذ في بني قريظة أخرجها البخاري ومسلم كما في جامع الأصول .

(٢) الآيات ٩-٢٧ من سورة الأحزاب .

مقاتلوك ، وصادوك عن البيت .

حتى إذا كان ببعض الطريق : قال النبي ﷺ : «إن خالد بن الوليد بكراع الغميم ، فخذوا ذات اليمين»(١) .

فما شعر بهم خالد ، حتى إذا هو بغبرة الجيش . فانطلق يركض نذيراً .

وانطلق رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان في ثنية المرار ، التي يهبط عليهم منها : بركت راحلته ، فقال الناس : حَلْ ، حَلْ . فقالوا : خَلأت القصواء ، فقال «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل . ثم قال : والذي نفس محمد بيده ، لا يسألوني خُطّة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» .

ثم زجرها فوثبت به . فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ثَمَدٍ قليل الماء . فلم يلبث الناسُ أن نزحوه ، فشكوا إليه . فانتزع سهماً من كنانته . وأمرهم أن يجعلوه فيه ، فو الله ما زال يجيش لهم بالرِّيِّ حتى صدروا عنه .

وفزعت قريش لنزوله . فأحب أن يبعث إليهم رجلا . فدعا عمر فقال : يا رسول الله ، ليس لي بمكة أحد من بني عدي بن كعب يغضب لي إن أوذيت ، فأرسلْ عثمان . فإن عشيرته بها ، وإنهُ يُبَلِّغ ما أردتَ . فدعاه فأرسله إلى قريش ، وقال : «أخبرهم : أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عُمّاراً ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات .

---

(١) هذه جملة من حديث صلح الحديبية ، رواه أحمد والبخاري من رواية عروة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم كما في منتقى الأخبار .

فيبشرهم بالفتح ، وأن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يُسْتَخْفى فيها بالإيمان» .

فانطلق عثمان . فمر على قريش ، فقالوا : إلى أين؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، ويخبركم : أنه لم يأت لقتال . وإنما جئنا عماراً . قالوا : قد سمعنا ما تقول . فانفذ إلى حاجتك .

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به . وحمله على الفرس ، وأردفه أبان حتى جاء مكة .

وقال المسلمون ، قبل أن يرجع : خلص عثمان من بيننا إلى البيت . فقال رسول الله ﷺ : «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون» قالوا : وما يمنعه يا رسول الله ، وقد خلص؟ قال : «ذلك ظني به : أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه» .

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح . فرمى رجل من أحد الفريقين رجلا من الفريق الآخر . فكانت معاركة . وتراموا بالنبل والحجارة . وصاح الفريقان وارتهن كل منهما من فيهم .

وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة . فتبادروا إليه ، وهو تحت الشجرة . فبايعوه على ألا يفروا . فأخذ بيد نفسه ، وقال : «هذه عن عثمان» .

ولما تمت البيعة رجع عثمان ، فقالوا له : اشتفيت من الطواف بالبيت . فقال بئسما ظننتم بي . والذي نفسي بيده لو مكثت بها سنة ، ورسول الله ﷺ بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف . ولقد دعتني قريش إلى الطواف فأبيت . فقال المسلمون : رسول الله أعلم بالله ، وأحسننا ظنا .

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة، وهو تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم. لم يتخلف إلا الجد بن قيس.

وكان معقل بن يسار آخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ. وكان أول من بايعه: أبو سنان وهب بن محصن الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات: في أول الناس، ووسطهم وآخرهم.

فبينا هم كذلك إذ جاء بُدَيل بن وَرْقاء في نفر من خزاعة -وكانوا عَيْبة نصح لرسول الله ﷺ من أهلِ تِهامة- فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي: قد نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العُوذ المطافيل. وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت. فقال: «إنا لم نجئ لقتال أحد. وإنما جئنا معتمرين. وإن قريشاً نَهكَتْهُم الحرب، وأضَرَّت بهم. فإن شاءوا مادَدْتُهم، ويخلُّوا بيني وبين الناس. فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمّوا، وإن أبوا إلا القتالَ، فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أَو لَيُنْفِذَنَّ الله أمره».

قال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعته يقول قولا. فإن شئتم عرضته عليكم.

فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا.

فقال عروة بن مسعود: إن هذا قد عرض عليكم خُطّة رُشْد، فاقبلوها ودعوني آته. فقالوا: ائْتِه. فأتاه. فجعل يكلمه. فقال له نحواً من قوله لبديل.

فقال عروة : أي محمد ، أرأيت لو استأصلتَ قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى ، فو الله إني لأرى أوشاباً من الناس ، خليقاً أن يفروا ويدعوك .

فقال أبو بكر : امْصُصْ بَظْر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه؟

قال عروة : من ذا يا محمد؟ قال : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده ، لولا يد كانت لك عندي -لم أجزك بها- لأجبتك .

وجعل يكلم النبي ﷺ ويرمق أصحابه . فو الله ما انْتَخَم النبي ﷺ نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم . فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمر ابتدروا أمره . وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه . وإذا تكلم خفضوا أصواتهم . وما يحدون إليه النظر تعظيماً له .

فرجع عروة إلى أصحابه ، فقال : أي قوم ، والله لقد وَفَدت على الملوك -كسرى ، وقيصر ، والنجاشي- والله إن رأيت ملكاً يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمداً . والله ما انتخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده . ثم أخبرهم بجميع ما تقدم ، ثم قال : وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

فقال رجل من بني كنانه : دعوني آتِه ، فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبي ﷺ ، قال : «هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البُدْن فابعثوها له» ففعلوا . واستقبله القوم يُلَبُّون . فلما رأى ذلك ، قال : سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فأخبرهم .

فبينا هم كذلك إذ جاء سهيل بن عمرو. فقال النبي ﷺ : «قد سُهل لكم من أمركم».

فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا الكاتب -وهو علي بن أبي طالب- فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن، فما أدري ما هو؟ ولكن اكتب «باسمك اللهم» كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال ﷺ : «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله» فقال: «إني رسول الله، وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله» ثم قال النبي ﷺ : «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنَطوَّف به» فقال سهيل: والله لا تَحَدَّث العربُ أننا أُخذنا ضُغْطة، ولكن ذاك من العام المقبل. فقال سهيل: «وعلى ألا يأتيك رجل منا، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا» فقال المسلمون: «سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟»[1].

فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل، وقد خرج من أسفل مكة يَرْسُف في قيوده، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال النبي ﷺ : «إنّا لم نقضِ الكتاب بعد» فقال: إذاً والله لا أصالحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ «فأَجِزْه لي» قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل. قال أبو جندل: يا معشر المسلمين، كيف أُرَد إلى المشركين

---

(١) حديث صلح الحديبية رواه أحمد والبخاري.

وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما لقيت؟ -وكان قد عُذِّب في الله عذاباً شديداً- قال عمر بن الخطاب: «والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ. فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألستَ نبي الله؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: علام نُعْطِي الدَّنِيّة في ديننا؟ ونرجع ولَمّا يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: إني رسول الله، وهو ناصري. ولست أعصيه. قلت: أو لستَ تحدثنا: أنّا نأتي البيت، ونَطّوف به؟ قال: بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطوف به. قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له مثلما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليَّ كما رد عليَّ رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغَرْزه حتى تموت. فو الله إنه لعلى الحق. فعملت لذلك أعمالا».

فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه «قوموا فانحروا. ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قالها ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد، قام ولم يكلم أحداً منهم حتى نحر بُدْنه ودعا حالقه.

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا. وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. ثم جاء نسوة مؤمنات، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾(١) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك.

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الممتحنة.

وفي مرجعه ﷺ : أنزل الله سورة الفتح : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآيتين فقال عمر أو فتح هو يا رسول قال : نعم؟ قال الصحابة : هذا لك يا رسول الله ، فما لنا؟ فأنزل الله : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ الآيتين إلى قوله : ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾(١) .

ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير -رجل من قريش- مسلماً ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذي بيننا وبينك . فدفعه إلى الرجلين . فخرجا به ، حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم . فقال أبو بصير لأحدهما : إني أرى سيفك هذا جيداً . فقال : أجل ، والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت فقال : أرني أنظر إليه . فأمكنه منه . فضربه حتى بَرَد . وفرَّ الآخر . حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد . فقال رسول الله ﷺ : «لقد رأى هذا ذُعْراً» فلما انتهى إليه قال : قُتل والله صاحبي ، وإني لمقتول .

فجاء أبو بصير ، فقال : يا نبي الله ، قد أوفَى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم ، فقال ﷺ : «ويلُ أمّه مِسْعَر حرب ، لو كان له أحد» .

فلما سمع ذلك عرف : أنه سيرده إليهم . فخرج حتى أتى سِيف البحر . وتَفَلّت منهم أبو جندل . فلحق بأبي بصير . فلا يخرج من قريش رجل -قد أسلم- إلا لحق به . حتى اجتمعت منهم عصابة . فوالله ما يسمعون بِعِيرٍ لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقاتلوهم

---

(١) الآيات ١-٥ من سورة الفتح .

وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم : لما أرسل إليهم . فمن أتاه منهم فهو آمن .

غزوة خيبر :

ولما قدم رسول الله ﷺ من الحديبية ، مكث بالمدينة عشرين يوماً ، أو قريباً منها . ثم خرج إلى خيبر . واستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة

وقدم أبو هريرة حينئذ المدينة مسلماً . فوافى سباعاً في صلاة الصبح ، فسمعه يقرأ : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فقال -وهو في الصلاة- : ويل أبي فلان ، له مكيالان ، إذا اكتال اكتال بالوافي ، وإذا كال كال بالناقص .

وقال سلمة بن الأكوع : خرجنا إلى خيبر . فقال رجل لعامر بن الأكوع : ألا تُسمعنا من هُنَيّاتك؟ فنزل يحدو ويقول :

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إنّا إذا صِيح بنا أتينا وبالصياح عولوا علينا

وإن أرادوا فتنة أبينا

فقال ﷺ : «من هذا السائق؟» قالوا : عامر بن الأكوع . قال : «رحمه الله» فقال رجل من القوم : وجبت يا رسول الله ، لولا متعتنا به؟

قال : فأتينا خيبر . فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة . فلما تصافُّوا خرج مرحب يخطر بسيفه ، ويقول :

قد علمتْ خيبر أني مرحَب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهّب

فنزل إليه عامر ، وهو يقول :

قد علمت خيبر : أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين . فوقع سيف مرحب في تُرس عامر فعضه ، فذهب عامر يُسفِل له -وكان سيفه قصيراً- فرجع إليه سيفه فأصاب ركبته فمات .

قال سلمة : فقلت للنبي ﷺ : زعموا أن عامراً حبط عمله ، فقال : «كذب من قال ذلك ، إن له أجرين -وجمع بين إصبعيه- إنه لجاهد مجاهد ، قَلَّ عربي مشى بها مثله» .

ولما دنا رسول الله ﷺ من خيبر قال : «قفوا» فوقف الجيش .

فقال : «اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، وربّ الرياح وما أذْرَيْنَ . فإنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها . ونعوذ بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها . أقدمُوا باسم الله»(١) .

فحاصرهم رسول الله ﷺ قريباً من عشرين ليلة . وكانت أرضاً وَخِمة شديدة الحر . فجهد المسلمون جهداً شديداً . فقام النبي ﷺ فيهم . فوعظهم وحضهم على الجهاد .

وكان فيهم عبد أسود ، فقال : يا رسول الله ، إني رجل أسود اللون ، قبيح الوجه ، منتن الريح ، لا مال لي ، فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل أدخل الجنة؟ قال : «نعم» فتقدم فقاتل حتى قتل ، فقال النبي ﷺ لما رآه : «لقد

---

(١) الحديث رواه النسائي وابن حبان والحاكم وصححاه من حديث صهيب .

حسن الله وجهك ، وطيب ريحك . وكَثّر مالك» وقال : «لقد رأيت زوجتيه من الحور العين تتنازعان جبة عليه . وتدخلان فيما بين جلده وجبته» .

فافتتح رسول الله ﷺ بعضها ، ثم تحول إلى الكتيبة ، والوطيح ، والسُّلالم . فإن خيبر كانت جانبين : الأول : الشق والنَّطاة ، الذي افتتح أولا . والثاني : ما ذكرنا .

فحاصرهم حتى إذا أيقنوا بالهلكة : سألوه الصلح . ونزل إليه سَلاّم بن أبي الحقيق فصالحهم على حقن الدماء وعلى الذرية ، ويخرجون من خيبر ، ويخلون ما كان لهم من مال وأرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والحلقة ، إلا ثوباً على ظهر إنسان .

فلما أراد أن يجليهم قالوا : نحن أعلم بهذه الأرض منكم . فدعنا نكون فيها . فأعطاهم إياها ، على شَطْر ما يخرج من ثمرها وزرعها .

ثم قسمها على ستة وثلاثين سهماً كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم . نصفها لرسول الله ﷺ وما ينزل به من أمور المسلمين . والنصف الآخر : قسمه بين المسلمين .

قدوم جعفر بن أبي طالب وصحبه من الحبشة :

وفي هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه . ومعهم الأشعريون : أبو موسى ، وأصحابه .

قال أبو موسى : بلغنا مخرجُ رسول الله ﷺ ، ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه -أنا وأخوان لي- في بضع وخمسين رجلا من قومي . فركبنا سفينة . فألقتنا إلى النجاشي ، فوافقنا جعفراً وأصحابه عنده ،

فقال : إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا . فأقمنا حتى قدمنا فتح خيبر . وكان ناس يقولون لنا : سبقناكم بالهجرة . فدخلت أسماء بنت عُميس على حفصة . فدخل عليها عمر وعندها أسماء . فقال : من هذه؟ قالت : أسماء . قال : الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء : نعم ، قال : سبقناكم بالهجرة . نحن أحق برسول الله منكم . فغضبت ، وقالت : كلا والله ، لقد كنتم مع رسول الله ﷺ ، يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم . وكنا في أرض البعداء البغضاء . وذلك في ذات الله وفي رسوله ، وأيم الله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ . فلما جاء النبي ﷺ ذكرتُ له ذلك . فقال : ما قلتِ له؟ قالت : قلت له كذا وكذا . قال : «ليس بأحق بي منكم . له ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم -يا أهل السفينة- هجرتان» .

فكان أبو موسى وأصحاب السفينة يأتونها أرسالا ، يسألونها عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ، ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ .

محاصرة رسول الله ﷺ بعض اليهود بوادي القرى :

ثم انصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القُرَى . وكان به جماعة من اليهود ، وانضاف إليهم جماعة من العرب .

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي ، وهم على غير تَعْبئة . فقتل مُدْعِم -عبد لرسول الله ﷺ- كان رفاعة بن زيد الجذامي وهبه لرسول الله ﷺ -فقال الناس : هنيئاً له الجنة . فقال رسول الله ﷺ : «كلا ، والذي نفسي بيده . إن الشّمْلة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها القسمة .

لتشتعل عليه ناراً» فلما سمع ذلك الناس ، جاء رجل بشراك أو شِراكين .
فقال رسول الله ﷺ : «شراك من نار ، أو شراكان من نار» .

فعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفّهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا . وبرز رجل منهم . فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله . ثم برز آخر فبرز إليه علي فقتله . حتى قتل منهم أحد عشر رجلا . فقاتلهم حتى أمسوا . ثم غدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قدر رمح حتى افتتحها عنوة . وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً . فقسمه في أصحابه .

وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها .

ولما رجع إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم من النخيل .

قالت عائشة رضي الله عنها : «لما فتحت خيبر قلنا : الآن نشبع من التمر» .

بعث سرية إلى الحرقات :

ثم بعث رسول الله ﷺ سرية إلى الحرقات من جهينة . فلما دنوا منهم : بعث الأمير الطلائع . فلما رجعوا بخبرهم أقبل حتى دنا منهم ليلا ، وقد هدأوا ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال : «أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له ، وأن تطيعوني ولا تعصوني ، ولا تخالفوا أمري . فإنه لا رأي لمن لا يطاع ، ثم رتبهم . فقال : يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق كل منكم صاحبه وزميله ، وإياكم أن يرجع أحد منكم ، فأقول : أين صاحبك؟ فيقول : لا أدري . فإذا كبرت فكبروا ، وجردوا السيوف . ثم كبروا وحملوا حملة واحدة . وأحاطوا بالقوم ، وأخذتهم سيوف الله .

عمرة القضية :

فلما كان في ذي القعدة من السنة السابعة : خرج رسول الله ﷺ معتمراً عمرة القضية . حتى إذا بلغ يأجِجَ(*) وضع الأداة كلها ، إلا الجُحُف والمِجَانّ والنبل والرماح . ودخلوا بسلاح الراكب -السيوف- وبعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث يخطبها . فجعلت أمرها إلى العباس . فزوجه إياها .

فلما قدم رسول الله ﷺ : أمر أصحابه أن يكشفوا عن المناكب ويسعوا في الطواف ، ليرى المشركون قوتهم -وكان يكايدهم بكل ما استطاع- فوقف أهل مكة -الرجال والنساء والصبيان- ينظرون إليه وإلى أصحابه ، وهم يطوفون بالبيت . وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ يرتجز يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله	في صحف تتلى على رسوله
بأن خير القتل في سبيله	يارب إني مؤمن بقيله
إني رأيت الحق في قبوله	اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله	ضرباً يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله

فأقام بمكة ثلاثا . ثم أتاه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، فصاح حويطب : نناشدك الله والعقد ، لما خرجت من أرضنا . فقد مضت

(*) مكان قريب من مكة .

الثلاث فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع فأذن بالرحيل .

ثم دخلت السنة الثامنة .

فكانت فيها غزوة مؤتة :

وسببها : أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير بكتاب إلى ملك الروم -أو بصرى- فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني -فقتله- ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره -فاشتد ذلك عليه . فبعث البعوث . واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال : «إن أصيب زيد : فجعفر بن أبي طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر : فعبد الله بن رواحة» فتجهزوا . وهم ثلاثة آلاف .

فلما حضر خروجهم ، ودع الناسُ أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم . فبكى عبد الله بن رواحة . فقالوا : ما يبكيك؟ قال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ، يذكر فيها النار : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾(١) ولست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟ فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم . وردكم إلينا صالحين . فقال ابن رواحة :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حَرَّان مُجهزة بحربة تَنْفُذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال ، إذا مروا على جدثي :

يا أرشدَ اللهُ من غازٍ . وقد رشدا

---

(١) آية ٧١ من سورة مريم .

ثم مضوا حتى نزلوا مَعان ، فبلغهم أن هرقل بالبلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليه من لخْم وجُذام وبَلِي وغيرهم مائة ألف .

فأقاموا ليلتين ينظرون في أمرهم .

وقالوا نكتب إلى رسول الله فنخبره . فإما أن يمدنا ، وإما أن يأمرنا بأمره .

فشجعهم عبد الله بن رواحة ، وقال : والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون : الشهادة . وما نقاتل الناس بقوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا . فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظفر . وإما شهادة .

فمضى الناس ، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم الجموع . فانحاز المسلمون إلى مُؤتة . ثم اقتتلوا عندها والراية في يد زيد . فلم يزل يقاتل بها حتى شاط في رماح القوم . فأخذها جعفر فقاتل بها . حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه فعقرها . ثم قاتل حتى قطعت يمينه . فأخذ الراية بيساره ، فقطعت يساره ، فاحتضن الراية حتى قتل . وله ثلاث وثلاثون سنة . رضي الله عنهم .

ثم أخذها عبد الله بن رواحة . فتقدم بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ويقول :

أقسم بالله لتَنْزِلنّه   لتنزلن أو لتُكْرَهِنّهْ

يا طالما قد كنتِ مطمئنهْ   إن أجلب الناس وشدوا الرَّنّهْ

مالي أراك تكرهين الجنة؟

ويقول أيضاً :

يا نفس إن لم تُقْتلي تموتي هذا حِمام الموت قد صَلِيت

وما تمنيتِ فقد أُعطيت إن تفعلي فِعْلَهما هُديت

ثم نزل . فأتاه فناداه ابن عم له بعرق من لحم . فقال : شُدَّ بهذا صلبك ، فإنك لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذها فانتهس منها نهسَة ، ثم سمع الحَطْمة في ناحية الناس . فقال : وأنت في الدنيا؟ فألقاها من يده وتقدم . فقاتل حتى قتل .

ثم أخذ الراية خالد بن الوليد . فدافع القوم وخاشَى بهم(*)، ثم انحازوا ، وانصرف الناس .

وقال ابن عمر : وجدنا ما بين صدر جعفر ومنكبه ، وما أقبل منه تسعين جراحة .

وقال زيد بن أرقم : كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة . فخرج بي في سفره ذلك مُرْدِفي على حقيبة رَحْله . فو الله إنه ليسير ذات ليلة ، إذ سمعته وهو ينشد شعراً :

إذا أدَّيتني وحملت رحلي مسيرة أربع بعد الحساء

فشأنكِ فانْعَمي ، وخلاكِ ذَم ولا أرجعْ إلى أهلي ورائي

وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشام مستَنْهي(*) الثواء

وردك كل ذي نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء

(*) قال السهيلي : المخاشاة المحاجزة . وهي مفاعلة من الخشية . لأنه خشي على المسلمين لقلة عددهم .

(*) قال السهيلي : مستفعل من النهاية والانتهاء أي حيث انتهى به مثواه .

هنالك لا أبالي طلع بعل ولا نخل أسافلها روائي

قال : فبكيت . فخفقني بالسوط ، وقال : ما عليك يالُكَع ، أن يرزقني الله الشهادة ، وترجع بين شعبتي الرحل؟ .

غزوة الفتح الأعظم :

وكانت سنة ثمان في رمضان .

وسببها : أن بكراً عدت على خزاعة على مائهم «الوَتير» فبيتوهم ، وقتلوا منهم . وكان في صلح الحديبية : «أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ فعل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش فعل» فدخلت بنو بكر في عقد قريش ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ . ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلا بماء ، يقال له : الوَتير ، قريباً من مكة . وأعانت قريش بني بكر بالسلاح . وقاتل معهم بعضهم مستخفياً ليلاً ، حتى لجأت خزاعة إلى الحرم .

فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر لنوفل بن معاوية الديلي وكان يومئذ قائدهم : يا نوفل ، إنّا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة لا إله له اليوم يا بني بكر ، أصيبوا ثأركم . فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم . أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

فخرج عمرو بن سالم الخزاعي ، حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة . فوقف عليه ، وهو جالس في المسجد بين ظهراني أصحابه ، فقال :

يـا رب إنـي ناشـد محـمـدا حِلْف أبينـا وأبيـه الأتـلـدا

قد كُنتمو وُلْـداً وكنّا والـدا ثُمّتَ أسلمنا . ولم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصراً أيدا ... وادعُ عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله ، قد تجردا ... أبيض مثل البدر ، يسمو صعدا

إنْ سيمَ خَسْفاً وجهه تربَّدا ... في فيلق كالبحر يجري مزبدا

إنَّ قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وجعلوا لي في كَداء رصدا ... وزعموا أن لستُ أدعو أحدا

وهم أذل وأقل عددا ... هم بيتونا بالوتير هُجّدا

وقتلونا رُكّعاً وسُجّدا

فقال رسول الله ﷺ : «نصرت يا عمرو بن سالم» . ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بما أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم . فقال رسول الله ﷺ للناس : «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العَقد ، ويزيد في المدة . بعثته قريش . وقد رهبوا للذي صنعوا» .

ثم قدم أبو سفيان . فدخل على ابنته أم حبيبة . فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه . فقال : يا بنية ، ما أدري : أرغبتِ بي عن هذا الفراش ، أم رغبتِ به عني؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت مشرك نَجِس . فقال : والله لقد أصابك بعدي شر . ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ . فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه في أن يكلم النبي ﷺ فقال : ما أنا فاعل . ثم أتى عمر فقال : أنا أشفع لكم؟ والله لو لم أجد إلا الذر ، لجاهدتكم به . ثم دخل على عليّ ، وعنده فاطمة -والحسن غلام يدب بين يديها- فقال ، يا علي ، إنك أمَسُّ

القوم بي رَحِماً، وإني جئت في حاجة، فلا أرجعن خائباً. اشفع لي إلى محمد. فقال: قد عزم رسول الله ﷺ على أمر، ما نستطيع أن نكلمه فيه. فقال لفاطمة: هل لك أن تأمري ابنك هذا، فيجير بين الناس. فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت: ما يبلغ ابني ذلك. وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

فقال: يا أبا الحسن، إني رأيت الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني.

قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقُمْ وأَجِرْ بين الناس، ثم الحَقْ بأرضك.

فقال: أوَ ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا، والله ما أظنه، ولكن ما أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: يا أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره، وانصرف عائداً إلى مكة.

فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فو الله ما ردَّ عليَّ شيئاً. ثم جئت ابن أبي قحافة. فلم أجد فيه خيراً. ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنى العدو -يعني: أعدى العدو- ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم. وقد أشار عليَّ بكذا وكذا. ففعلت. قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا ويلك، والله إنْ زاد الرجلُ على أن لعب بك.

وأمر رسولُ الله ﷺ الناس بالجهاز، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نَبْغتها في بلادها».

فكتب حاطب بن أبي بَلْتَعة إلى قريش كتاباً، يخبرهم فيه بمسير رسول الله ﷺ . ودفعه إلى سارة -مولاة لبني عبد المطلب- فجعلته في رأسها. ثم فتلت عليه قرونها. وأتى الخبر رسولَ الله ﷺ من السماء. فأرسل رسول الله ﷺ علياً والزبير إلى المرأة، فأدركاها بروضة خاخ. فأنكرت. ففتشا رحلها، فلم يجدا فيه شيئاً. فهدداها. فأخرجته من قرون رأسها. فأتيا به رسول الله ﷺ . فدعا حاطباً. فقال: «ما هذا يا حاطب؟» فقال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله. والله إني لمؤمن بالله ورسوله. ما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرءاً مُلْصَقاً في قريش، لست من أنفسهم. ولي فيهم أهل وعشيرة وولد. وليس لي فيهم قرابة يحمونهم. وكان مَنْ معك لهم قرابات يحمونهم. فأحببت أن أتخذ عندهم يداً. قد علمتُ أن الله مظهر رسوله، ومُتِم له أمره.

فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله. وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ : «إنه قد شهد بدراً وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم. فقد غفرت لكم»(١).

فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

ثم مضى رسول الله ﷺ ، وعَمّى الله الأخبار عن قريش، لكنهم على وَجَل. فكان أبو سفيان يتجسس، هو وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء.

وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً. فلقي رسولَ الله ﷺ بالجُحْفة. فلما نزل رسول الله ﷺ مَرَّ الظهران نزل العشاء،

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم كما في منتقى الأخبار.

فأَمر الجيش فأوقدوا النيران . فأُوْقِد أكثر من عشرة آلاف نار . فركب العباس بغلة رسول الله ﷺ . وخرج يلتمس ، لعله يجد بعض الحطّابة ، أو أحداً يخبر قريشاً ، ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها عنوة .

قال : فو الله إني لأسير عليها ، إذ سمعت كلام أبي سفيان ، وبديل ، يتراجعان ، يقول أبو سفيان : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً .

قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة ، حَمَشتها الحرب .

قال : يقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها .

فقلت : أبا حنظلة؟ فعرف صوتي ، فقال : أبا الفضل؟ قلت : نعم . قال : مالك ، فداك أبي وأمي؟ قال قلت : هذا رسول الله ﷺ في الناس واصَباحَ قريش والله ، قال : فما الحيلة؟ .

قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك . فاركب في عجز هذه البغلة ، حتى آتيه بك ، فأستأمنه لك . فركب خلفي . ورجع صاحباه . فجئت به . فكلما مررت بنار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا؟ فإذا رأونا قالوا : عَم رسول الله ﷺ على بغلته . حتى مررت بنار عمر ، فقال : من هذا؟ وقام إليَّ . فلما رأى أبا سفيان قال : عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن الله منك بغير عقد ولا عهد .

ثم خرج يشتدُّ نحو رسول الله ﷺ . وركَضْتُ البغلة فسبقته ، واقتحمت عنها . فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر . فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان ، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني أضرب عنقه . فقلت : يا رسول الله ، إني قد أجرته .

فلما أكثر عمر ، قلت : مهلاً يا عمر . فو الله لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا . قال : مهلاً يا عباس . فو الله لإسلامُك كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم . وما بي إلا أني عرفتُ أن إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب . فقال رسول الله ﷺ : «اذهب به يا عباس إلى رحلك . فإذا أصبحت فائْتِني به» .

ففعلت . ثم غدوت به إلى رسول الله ﷺ . فقال : «ويحك يا أبا سفيان ، ألم يَأنِ لك أن تعلم : أن لا إله إلا الله؟» قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد . قال : «ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم : أني رسول الله؟» قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . أما هذه ففي النفس حتى الآن منها شيء .

فقال له العباس : ويحك . أسلم قبل أن يضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق ، فأسلم .

فقال العباس : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال : «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» .

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : «يا عباس ، احْبِسْه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها» قال : فخرجت حتى حبسته . ومرت القبائل على راياتها . حتى مرَّ به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء -لكثرة الحديد وظهوره فيها- فيها المهاجرون والأنصار ، لا يُرَى منهم إلا الحَدَق . فقال : سبحان الله! يا عباس . من هؤلاء؟ قلت هذا

رسول الله في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء طاقة .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبي سفيان ، قال : اليوم يوم الْملحمَة . اليوم تُسْتَحلُّ الحرمة . اليوم أذل الله قريشاً . فذكره أبو سفيان لرسول الله ﷺ . فقال : «كذب سعد . ولكن هذا اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم أعز الله قريشاً» ثم نزع اللواء من سعد . ودفعه إلى قيس ابنه .

ومضى أبو سفيان . فلما جاء قريشاً صرخ بأعلى صوته : هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن .

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وسار رسول الله ﷺ حتى دخل مكة من أعلاها ، وأمر خالد بن الوليد فدخلها من أسفلها ، وقال : «إن عَرَض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً ، حتى توافوني على الصفا» .

فما عرض لهم أحد إلا أناموه .

وتجمع سفهاء قريش مع عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، بالخَنْدَمة ليقاتلوا . وكان حماس بن قيس يعد سلاحاً قبل مجيء رسول الله ﷺ . فقالت له امرأته : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء فقال : والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم ، ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالي عله   هذا سلاح كامل وإلّهْ

وذو غِرارين سريع السلّه

ثم شهد الخندمة . فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ، ناوشوهم شيئاً من قتال ، فأصيب من المشركين اثنا عشر ، ثم انهزموا . فدخل حماس على امرأته ، فقال : اغلقي عليَّ بابي . فقالت : وأين ماكنت تقول؟ فقال :

إنك لو شهدتِ يوم الخَنْدَمَهْ	إذ فَرَّ صفوان . وفرّ عكرمه
وأبو يزيد قائم كالمؤتمهْ	واستقبلتنا بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمهْ	ضرباً فلا يسمع إلا غمغمهْ
لهم نَهيتٌ خلفنا وهَمهمه	لم تنطقي باللوم أدنى كلمهْ

وقال أبو هريرة : أقبل رسول الله ﷺ . فدخل مكة . فبعث الزبير على إحدى المجنبتين . وبعث خالداً على المجنبة الأخرى . وبعث أبا عبيدة بن الجراح على الحُسّر . فأخذوا بطن الوادي ، ورسول الله ﷺ في كتيبته . وقد وَبّشت قريش أوباشها ، وقالوا : نقدم هؤلاء . فإذا كان لهم شيء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطيناه الذي سألنا . فقال رسول الله ﷺ : «يا أبا هريرة» ، فقلت : لبيك يا رسول الله . قال : «اهتف لي بالأنصار . ولا يأتيني إلا أنصاري» فهتفت بهم ، فجاءوا . فأطافوا برسول الله ﷺ . فقال : «أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟ -ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى- احصدوهم حصداً ، حتى توافوني على الصفا» قال أبو هريرة : فانطلقنا . فما يشاء أحد منا أن يقتل منهم ما شاء إلا قتل . ورُكِزت راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح . ثم نهض والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد . فأقبل إلى الحجَر فاستلمه . ثم طاف بالبيت . وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه ، ثلاثمائة وستون صنماً . فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ

كَانَ زَهُوقًا ﴾[1] ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[2] والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرماً يومئذ ، فاقتصر على الطواف .

فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة . فأمر بها ففتحت . فدخلها . فرأى فيها الصور ، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام . فقال : «قاتلهم الله ، والله إن استقسما بها قط» وأمر بالصور فمحيت . ثم أغلق عليه الباب ، هو وأسامة ، وبلال . فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب . حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلى هناك . ثم دار في البيت ، وكبر في نواحيه ، ووحد الله . ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ، ينظرون ماذا يصنع بهم؟ فأخذ بِعضَادَتَي الباب ، وهم تحته . فقال : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له . صدق وعده . ونصر عبده . وأَعَزَّ جنده . وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثَرة ، أو مال ، أو دم ، فهو تحت قَدَميَّ هاتين ، إلا سِدانة البيت ، وسقاية الحاج . ألا وقتل الخطأ شبه العمد -السوط والعصا- ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نَخْوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب» ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3] .

---

(١) من الآية ٨١ من سورة الإسراء .

(٢) من الآية ٤٩ من سورة سبإ .

(٣) آية ١٣ من سورة الحجرات .

ثم قال : «يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

ثم جلس في المسجد ، فقام إليه علي -ومفتاح الكعبة في يده- فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية . صلى الله عليك . فقال ﷺ : «أين عثمان بن طلحة»؟ فَدُعِي له ، فقال : «هاكَ مفتاحَك يا عثمان ، اليوم يوم بِر ووفاء» .

وأمر بلالاً أن يصعد على الكعبة فيؤذن -وأبو سفيان بن حرب ، وعَتّاب بن أُسيد ، والحارث بن هشام ، وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة- فقال عتاب : لقد أكرم الله أُسيدا أن لا يكون سمع هذا . فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته . فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرتْ عني هذه الحصباء . فخرج عليهم النبي ﷺ . فقال : «قد علمت الذي قلتم» ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله . والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا . فنقول : أخبرك .

ثم دخل ﷺ دار أم هانئ فاغتسل . وصلى ثمان ركعات ، صلاة الفتح . وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا بلداً صلوا هذه الصلاة .

ولما استقر الفتح : أمّن رسول الله ﷺ الناس كلهم ، إلا تسعة نفر . فإنه أمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة : عبد الله بن أبي سَرْح ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعبد العزى بن خَطَل ، والحارث بن نفيل ، ومَقيس ابن صُبابة ، وهَبّار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل ، وسارة مولاة لبني عبد المطلب .

فأما ابن أبي سرح : فجاء فارا إلى عثمان . فاستأمن له رسول الله ﷺ . فقبل منه ، بعد أن أمسك عنه ، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله .

وأما عكرمة : فاستأمنت له امرأته بعد أن هرب ، وعادت به ، فأسلم وحسن إسلامه .

وأما ابن خطل ، ومقيس ، والحارث ، وإحدى القينتين : فقتلوا .

وأما هبار : ففر ثم جاء فأسلم . وحسن إسلامه .

واستؤمن رسول الله ﷺ لسارة ، ولإحدى القينتين . فأسلمتا .

فلما كان الغد من يوم الفتح : قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً . فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : «أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض . فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر : أن يسفك بها دماً ، أو يَعْضِد بها شجرة ، فإن أحدٌ ترخّص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا له : إن الله أذن لرسوله . ولم يأذن لك . وإنما أحلت لي ساعة من نهار» .

وهَمَّ فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أن يقتل رسول الله ﷺ ، وهو يطوف . فلما دنا منه ، قال : «أفضالة؟» قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : «ماذا تحدث به نفسك؟» قال : لا شيء . كنت أذكر الله ، فضحك ﷺ . ثم قال : «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه . وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلي . فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث . فقال : لا . وانبعث فضالة يقول :

قالت : هلم إلى الحديث . فقلت : لا .

يأبى الإله عليك والإسلام

لو قد رأيت محمداً وقبيله   بالفتح يوم تُكَسّر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بَيّناً   والشرك يغشى وجهه الإظلام

وفر يومئذ صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل . فاستأمن عمير بن وهب رسول الله لصفوان ، فلحقه . وهو يريد أن يركب البحر فرده .

واستأمنت أم حكيم بنت الحارث بن هشام لزوجها عكرمة ، فلحقت به باليمن فردته .

ثم أمر رسول الله ﷺ عَتّاب بن أسيد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم .

وبعث ﷺ سراياه إلى الأوثان التي حول مكة فكسرت كلها ، منها اللات والعزى ومناة . ونادى مناديه بمكة : مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر : فلايدع في بيته صنماً إلا كسره .

هدم عمرو بن العاص صنم سواع :

وبعث عمرو بن العاص في شهر رمضان إلى سواع -وهو لهذيل- قال : فأتيته وعنده السادن ، فقال : ما تريد؟ قلت : أهدمه قال : لا تقدر على ذلك ، قلت : لمَ؟ قال : تُمنع . قلت حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك . وهل يسمع أو يبصر؟ فدنوت منه فكسرته . وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته . فلم نجد فيه شيئاً . فقلت للسادن : كيف رأيت؟ قال : أسلمت لله .

بعث سعد بن زيد لهدم مناة :

ثم بعث سعد بن زيد بن مالك بن عبد بن كعب بن عبد الأشهل ،

الأشهلي الأنصاري ، في شهر رمضان إلى مناة . وكانت عند قُديد بالمشَلّل ، للأوس والخزرج وغسان وغيرهم .

فخرج في عشرين فارساً ، حتى انتهى إليها . وعندها سادنها ، فقال : ما تريد؟ قال : هدمها . قال : أنت وذاك . فأقبل سعد يمشي إليها ، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ، ثائرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها .

فقال لها السادن : مَناةُ ، دونك بعضَ عُصاتك . فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه . ولم يجدوا في خزانتها شيئاً .

غزوة حنين :

قال ابن إسحاق : لما سمعت هوازن بالفتح ، جمعها مالك بن عوف النصري مع هوازن ثقيف كلها .

فلما أجمع مالك السير إلى رسول الله ﷺ ، ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وذراريهم . فلما نزل بأوطاس ، اجتمعوا إليه . وفيهم دريد بن الصِّمّة الجُشَمِي ، وهو شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيه ، وكان شجاعاً مجرباً .

فقال : بأي وادٍ أنتم؟ قالوا : بأوطاس . قال : نِعْمَ مجالُ الخيل . لا حَزْن ضَرْس ، ولا سهل دَهْس ، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونهاق الحَمير ، وبكاء الصغير . ويَعار الشاء؟ قالوا : ساق مالك مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

قال : أين مالك؟ فدعي له ، فقال : إنك قد أصبحت رئيس قومك . وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام . فَلِمَ فعلت هذا؟ قال : أردت أن أجعل خَلْف كل رجل أهله وماله ، ليقاتل عنهم . قال : راعي ضأن والله ، وهل يرد

المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك: لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه. وإن كانت عليك: فُضِحت في أهلك ومالك. ثم قال: ما فعلتْ كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الحدُّ والجِدُّ، لو كان يوم علاء ورفعة لم يغيبوا. ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب. فمن شهدها؟ قالوا عمرو بن عامر، وعوف بن عامر. قال: ذانك الجذعان من عامر، لا ينفعان ولا يضران. يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم البيضة -بيضة هوازن- إلى نحور الخيل شيئاً. ارفعهم إلى ممتنع بلادهم، وعلياء قومهم. ثم القَ الصبا على متون الخيل. فإن كانت لك: لحق بك مَنْ وراءك. وإن كانت عليك: ألفاك ذاك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال: والله لا أفعل، إنك قد كَبِرْت وكبُر عقلك. والله لتُطيعُنني يا معشر هوازن، أو لأتكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر، أو رأي.

قالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده، ولم يَفُتْني.

يا ليتني فيها جذع أخُبُّ فيها وأضَع

أقود وَطْفاء الزمع(*) كأنها شاة صدع

ثم قال مالك: إذا رأيتموهم، فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد.

ثم بعث عيوناً من رجاله، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم من الرعب

(*) الوطفاء: السحابة المسترخية الجوانب، لكثرة مائها، و«الزمع» جمع زمعة. وهي التلعة -بالتحريك- الصغيرة.

والهلع . فقال لهم : ويلكم ، ما شأنكم؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْق . والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى . فو الله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد .

ولما سمع بهم رسول الله ﷺ : بعث إليهم عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي . وأمره أن يداخلهم حتى يعلم علمهم . فانطلق . فداخلهم حتى علم ما هم عليه . فأتى رسول الله ﷺ ، فأخبره الخبر .

فلما أراد المسير ، ذُكِرَ له : أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً -وهو يومئذ مشرك- فقال له : «يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا ، نلقَ فيه عدونا غداً» فقال : أغصباً يا محمد؟ قال : «بل عارية مضمونة ، حتى نؤديها إليك» فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح . فخرج ﷺ . ومعه ألفان من أهل مكة ، وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة . فكانوا اثني عشر ألفاً . واستعمل عتاب بن أسيد على مكة .

فلما استقبلوا وادي حنين ، انحدروا في وادٍ من أودية تهامة أجوف في عماية الصبح . قال جابر : وكانوا قد سبقونا إليه ، فكمنوا في شعابه ومضايقه . قد تهيأوا . فو الله ما راعنا إلا الكتائب ، قد شدوا علينا شَدَّةَ رجل واحد ، فانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد . وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، ثم قال : «أيها الناس : هلموا إليَّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله» .

وبقي معه نفر من المهاجرين ، وأهل بيته ، فاجتلد الناس . فو الله ما رجعت الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى عند رسول الله ﷺ .

وكانوا حين رأوا كثرتهم قالوا : «لن نغلب اليوم عن قلة» فوقع بهم ما

وقع ابتلاء من الله لقولهم ذلك .

قال ابن إسحاق : ولما وقعت الهزيمة : تكلم رجال من جُفاة أهل مكة بما في أنفسهم من الضَّغْن ، فقال أبو سفيان ، لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وصرخ جبلة بن الحنبل : ألَا بطل السحر اليوم . فقال له أخوه صفوان بن أمية -وكان بعد مشركاً- اسكت ، فضَّ الله فاك . فو الله لأن يَرُبّني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن .

وذكر ابن اسحق عن شيبة بن عثمان الحجبي . قال : «لما كان يوم الفتح قلت : أسير مع قريش إلى هوازن ، لعلي أصيب من محمد غِرَّة . فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها ، وأقول : لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا تبعه ، ما اتبعته أبداً . فلما اختلط الناس ، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته وأصلتُّ السيفَ ، فدنوت أريد ما أريد ، ورفعت سيفي حتى كدت أسَوِّره . فرفع لي شواظ من نار كالبرق ، كاد أن يمحَشَني فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه . فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ . فناداني «يا شيبُ ، ادْنُ» فدنوتُ ، فمسح صدري . ثم قال : «اللهم أعِذْه من الشيطان» فو الله لهو كان ساعتئذ أحبَّ إليَّ من سمعي وبصري ونفسي . ثم قال : «ادن ، فقاتل» فتقدمت أمامه أضرب بسيفي . اللهُ يعلم أني أحب أن أقِيَه بنفسي . ولو لقيت تلك الساعة أبي لأوقعت به السيف . فجعلت ألزمه فيمن لزمه ، حتى تراجع الناس ، وكروا كرة رجل واحد . وقُرِّبت بغلة رسول الله ﷺ . فاستوى عليها . وخرج رسول الله ﷺ في أثرهم حتى تفرقوا ، في كل وجه . ورجع رسول الله ﷺ إلى معسكره ، فدخل خباءه . فدخلت عليه ، ما دخل عليه غيري ، حباً لرؤية وجهه ، وسروراً به . فقال «يا شيب ، الذي أراد الله لك ، خير من الذي أردت لنفسك» .

قال العباس : إني لمع رسول الله ﷺ -وكنت امرءاً جسيماً شديد الصوت- فقال رسول الله ﷺ -حين رأى ما رأى من الناس- «إليَّ أيها الناس ، أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب» فلم أر الناس يلوون على شيء . فقال : «أيْ عباسُ ، اهتف بأصحاب السَّمُرة(*)» فناديت : يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة . فكان الرجل يريد أن يرد بعيره فلا يقدر . فيأخذ سلاحه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلي سبيله . ويؤم الصوتَ ، فأتوا من كل ناحية : لبيك ، لبيك . حتى إذا اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة استقبلوا الناس ، فاقتتلوا . فكانت الدعوة أولا : «يا للأنصار ، يا للأنصار» ، ثم خلصت الدعوة : «يا لبني الحارث بن الخزرج» ، وكانوا صُبُراً عند الحرب .

وفي صحيح مسلم : «ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات . فرمى بها وجوه القوم . ثم قال : انهزموا ، ورب محمد . فما هو إلا أن رماهم ، فما زلت أرى حَدَّهم كليلاً ، وأمرهم مدبراً» .

ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف . وعسكر بعضهم بأوطاس . وبعث رسول الله ﷺ في أثر من توجه نحو أوطاس أبا عامر الأشعري ، فأدرك بعضهم فناوشوه القتال ، فهزمهم الله تعالى . وقتل أبو عامر . فأخذ الراية أبو موسى الأشعري . فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ قال : «اللهم اغفر لأبي عامر . واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك» .

وأمر رسول الله ﷺ بالسبي والغنائم أن يجمع . وكان السبي ستة آلاف رأس ، والإبل : أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم : أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة .

(*) هي الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان .

فاستأنى بهم رسول الله ﷺ أن يقدموا موالين مسلمين ، بضع عشرة ليلة . ثم بدأ بالأموال فقسمها . وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس فأعطى أبا سفيان مائة من الإبل . وأربعين أوقية . وأعطى ابنه يزيد مثل ذلك . وأعطى ابنه معاوية مثل ذلك . وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل . ثم سأله مائة أخرى فأعطاه .

وذكر ابن إسحاق أصحاب المائة وأصحاب الخمسين .

ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس ، ثم فضها على الناس .

قال ابن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : «لما أعطى رسول الله ﷺ من أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وَجَدتِ الأنصارُ في أنفسهم . حتى كثرت منهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه . فدخل عليه سعد بن عبادة ، فذكر له ذلك . فقال : «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي . قال : «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة» فجاء رجال من المهاجرين . فتركهم فدخلوا . وجاء آخرون فردهم فلما اجتمعوا ، أتاه سعد فأخبره . فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال : «يا معشر الأنصار ، ما مقالة بلغتني عنكم؟ وجِدَة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتِكُم ضُلاّلا . فهداكم الله بي؟ وعالَةً فأغناكم الله بي وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي؟» .

قالوا الله ورسوله أَمَنّ وأفضل .

ثم قال : «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» .

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله؟ ولله ولرسوله المَنّ والفضل .

قال : «أما والله ، لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولَصُدِّقتم ، أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أَوجَدْتم علي يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة(*) من الدنيا ، تألَّفتُ بها قوماً ليُسْلِموا ، ووَكَلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار : أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وادياً ، وسلكت الأنصار شعباً وواديا ، لسلكت شعب الأنصار ووواديها . الأنصار شعار . والناس دثار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» .

قال : فبكى القوم ، حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قَسْماً وحظاً . ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا .

وقدمت الشّيماء بنت الحارث -أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة- فقالت : يا رسول الله ، أنا أختك ، فبسط لها رداءه . وأجلسها عليه . وقال : «إن أحببتِ فعندي مُكَرَّمةً ، وإن أحببتِ أن أُمَتِّعك وترجعي إلى قومك» فقالت : بل تمتعني ، وتردني إلى قومي ففعل وأسلمت . فأعطاها ثلاثة أعبد وجارية ونَعَماً وشاءً .

المن على سبي هوازن :

وقدم وفد هوازن على رسول الله ﷺ ، وهم أربعة عشر رجلا . فسألوه :

(*) اللعاعة -بضم اللام- نبت ناعم في أول ما ينبت . يقال : خرجنا نتلعى . أي نأخذ اللعاعة . يريد . أنها قليلة البقاء كالنبات الأخضر .

أن يمن عليهم بالسبي والأموال ، فقال : «إن معي من ترون ، وإن أحب الحديث إليَّ أصدقه . فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم ، أم أموالكم؟» ، فقالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً . فقال : «إذا صليتُ الغداة فقوموا ، فقولوا : إنّا نستشفع برسول الله ﷺ على المؤمنين ، وبالمؤمنين على رسول الله أن يرد إلينا سَبْينا» .

فلما صلى رسول الله الغداة قاموا ، فقالوا ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : «أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب : فهو لكم ، وسأسأل لكم الناس» .

فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حِصْن : أما أنا وبنو فزارة فلا . وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال العباس : وَهّنْتموني .

فقال رسول الله ﷺ : «إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين . وقد استأنيت بسبيهم ، وقد خَيّرتهم ، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً . فمن كان عنده شيء فطابت نفسه بأن يرده ، فسبيل ذلك . ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرده عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا» فقال الناس : قد طيبنا ذلك لرسول الله ﷺ . فقال : «إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم . فردوا عليهم أبناءهم ونساءهم ، وكسى النبي ﷺ السبي قبطية قبطية» .

* * *